بخش عربی :

الإعجاز القرآنی (۷)

آیة الله معرفة

كان البحث حول الاعجاز في دراسات اللاحقين من علماء و كتّاب معاصرين و قد ذكرنا كلمات سيّد قطب و الاستاذ مصطفى محمود و الدكتور محمد عبدالله درّاز و الآن نقدّم بقية الابحاث:

۴ ـ وقال الأُستاذ مصطفى صادق الرافعي: و قد كان من عادة العرب أن يتحدّى بعضهم بعضاً في المساجلة و المقارضة بالقصيد و الخطب، ثقة منهم بقوّة الطبع، ولأنّ ذلك مذهب من مفاخرهم، يستعلون به ويذيع لهم حسن الذكر و علوّ الكلمة، و هم مجبولون عليه فطرة. و لهم فيه المواقف و المقامات في أسواقهم و مجامعهم. فتحدّاهم القرآن في آيات كثيرة أن يأتوا بمثله أو بعضه، وسلك الى ذلك طريقاً كأنّها قضيّة من قضايا المنطق التأريخي، فإنّ حكمة هذا التحدّي و ذكره في القرآن، إنّما هي أن يشهد التأريخ في كلّ عصر بعجز العرب عنه و هم الخطباء اللّدّ و الفصحاء اللسن، و هم كانوا في العهد الذي لم يكن للغتهم خير منه و لاخير منهم في الطبع و القوّة، فكانوا مظنّة المعارضة و القدرة عليها. حتى لايجيء بعد ذلك فيما يجيء من الزمن، مولّد أو أعجمي أو كاذب أو منافق أو ذو غفلة، فيزعم أنّ العرب كانوا قادرين على مثله...

أمّا الطريقة التي سلكها الى ذلك، فهي أنّ التحدّي كان مقصوراً على طلب المعارضة بالمثل، ثم قرن التحدّي بالتأنيب و التقريع، ثمّ استفزّهم بعد ذلك جملة واحدة، كما ينفج الرماد الهامد[1]، فقال: «و إنْ كُنتُم في رَيبٍ مِمّا نَزّلنا علىٰ عَبدِنا فَأتُوا بِسُورةٍ مِن مِثلِه و ادعُوا شُهدائَكُم مِن دُونِ اللهِ إن كُنتُم صادِقين فإنْ لَم تَفعَلوا وَلَن تَفعَلوا فاتّقُوا النّارَ الّتي وَقودُها النّاسُ والحِجارَة أُعِدّتْ لِلكافِرينَ» فقطع لهم أنّهم لن يفعلوا، و هي كلمة يستحيل أن تكون إلاّ من الله ولا يقولها عربي في العرب أبداً، و قد سمعوها و استقرّت فيهم و دارت على الألسنة، و عرفوا أنّها تنفي عنهم الدهر نفياً و تعجزهم آخر الأبد، فما فعلوا و لاطمعوا قطّ أن يفعلوا. و طارت الآية بعجزهم و أسجلته عليهم و وسمتهم على ألسنتهم...

تأمّل نظم الآية تجد عجباً، فقد بالغ في اهتياجهم و

استفزازهم ليثبت أنّ القدرة فيهم على المعارضة كقدرة الميّت على أعمال الحياة، لن تكون و لن تقع! فقال لهم: لن تفعلوا! أي هذا منكم فوق القوّة و فوق الحيلة و فوق الاستعانة و فوق الزمن، ثم جعلهم وقوداً، ثمّ قرنهم الى الحجارة، ثمّ سمّاهم كافرين. فلو أنّ فيهم قوّة بعد ذلك لانفجرت، ولكن الرماد غيرالنار...

فلمّا رأوا هممهم لاتسمو الى ذلك، ولا تقارب المطمعة فيه، و قد انقطعت بهم كلّ سبيل الى المعارضة، بذلوا له السيف، كما يبذل المحرج آخر وسعه «آخر الدواء الكيّ» و اخطروا بأنفسهم و أموالهم، وانصرفوا عن توهّن حجته الى تهوينها على أنفسهم بكلام من الكلام، فقالوا ساحر، و شاعر، و مجنون، و رجل يكتتب أساطير الأوّلين، و إنّما يعلّمه بشر، و أمثال ذلك ممّا أخذت به الحجة عليهم و كان إقراراً منهم بالعجز...[٢].

قال: و كان أسلوب الكلام عند العرب قبيلاً واحداً و جنساً معروفاً، ليس إلاّ الحرّ من المنطق و الجزل من الخطاب، و إلا اطّراد النسق و توثيق السرد و فصاحة العبارة و حسن ائتلافها... فلمّا ورد عليهم اسلوب القرآن رأوا ألفاظهم بأعيانها متساوقة فيما ألفوه من طرق الخطاب و الوان المنطق، ليس في ذلك اعنات و لامعاياة، غير أنّهم ورد عليهم من طرق نظمه، و وجوه تركيبه، و نسق حروفه في كلماتها، و كلماته في جملها، و نسق هذه الجمل في جملته، ما أذهلهم عن أنفسهم، من هيبة رائعة و روعة مخوفة، و خوف تقشعرّ منه الجلود، حتى أحسّوا بضعف الفطرة و تخلّف الملكة، ورأى بلغاؤهم أنّه جنس من الكلام غير ما هم فيه فاستيأسوا من حقّ المعارضة، إذ وجدوا من القرآن ما يغمر القوة و يحيل الطبع و يخاذل النفس، مصادمة لاحيلة و لاخدعة... و لهذا انقطعوا عن المعارضة...[٣]

ثم أخذ في بيان وجه هذا الإعجاز و سرّه الكامن وراء جمال لفظه و روعة بيانه، قال: ذلك بعض ما تهيّأ لنا من القول في الجهات التي اختصّ بها اسلوب القرآن، فكانت اسباباً لانقطاع العرب دونه و انخذالهم عنه.

و تلك أسباب لايمكن أن يكون شيء منها في كلام بلغاء الناس من أهل هذه اللغة، لأنّها خارجة عن قوى العقول و جماع الطبائع، و لا أثر لها في نفس كلّ بليغ إلاّ استشعار العجز عنها و الوقوف من دونها... و إنّما تلك الجهات صفات من نظم القرآن و طريقة تركيبه، فنحن

الآن قائلون في سرّ الإعجاز الذي قامت عليه هذه الطريقة و انفرد به ذلك النظم، و هو سرّ لاندعي أنّنا نكشفه أو نستخلصه أو ننتظم اسلوبه، و إنّما جهدنا أن نومئ إليه من ناحية و نعيّن بعض أوصافه من ناحية، فإنّ هذا القرآن هو ضمير الحياة، و هو من اللغة كالروح الإلهيّة التي تستقرّ في مواهب الإنسان فتضمن لآثاره الخلود...

... و الكلام بالطبع يتركّب من ثلاثة: حروف هي من الأصوات، و كلمات هي من الحروف، و جمل هي من الكلم. و قد رأينا سرّ الإعجاز في نظم القرآن يتناول هذه كلّها... و لهذا النظم طريقة خاصّة اتّبعها القرآن الكريم كانت غريبة على العرب و في نفس الوقت رائعة تستأنس إليها النفوس! إنّ طريقة النظم التي اتّسقت بها ألفاظ القرآن، و تألّفت لها حروف هذه الألفاظ إنّما هي طريقة يتوخّى بها الى أنواع من المنطق و صفات من اللهجة لم تكن على هذا الوجه من كلام العرب، و لكنّها ظهرت فيه أوّل شيء على لسان النبى صلى الله عليه و آله و سلم فجعلت المسامع لاتنبو عن شيء من القرآن، و لاتلوي من دونه حجاب القلب، حتى لم يكن لمن سمعه بدّ من الاسترسال إليه و التوفّر على الإصغاء، لايستمهله أمر من دونه و إن كان أمر العادة، و لايستنسئه الشيطان و إن كانت طاعته عندهم عبادة، فإنّه إنّما يسمع ضرباً خالصاً من (الموسيقى اللغويّة) في انسجامه و اطّراد نسقه و اتّزانه على أجزاء النفس مقطعاً مقطعاً و نبرة نبرة كأنها توقّعه توقيعا و لاتتلوه تلاوة!

و هذا نوع من التأليف لم يكن منه في منطق أبلغ البلغاء و أفصح الفصحاء إلاّ الجمل القليلة التي إنّما تكون روعتها و صيغتها و أوزان توقيعها من اضطراب النفس الحاصل في بعض مقامات الحماسة أو الفخر أو الغزل أو نحوها فتنتزي بكلام تلفظه العاطفة أحياناً.

و كان العرب يترسّلون أو يحذمون[4] في منطقهم كيفما اتفق لهم لايراعون أكثر من تكييف الصوت، دون تكييف الحروف اللّهم إلاّ بتعمّل يأتونه على نمط الموسيقي و هي غاية ماعرفوه من نظم الكلام.

فلمّا قرئ عليهم القرآن، رأوا حروفه في كلماته، و كلماته في جمله، ألحاناً لغويّة رائعة، كأنّها لائتلافها و تناسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها ـ (و كلّ الذين يدركون أسرار الموسيقي و فلسفتها النفسيّة ـ اليوم ـ

لايرون في الفن العربي بجملته شيئاً يعدل هذا التناسب الذي طبيعي في كلمات القرآن و أصوات حروفها، و ما منهم من يستطيع أن يغتمز في ذلك حرفاً واحداً، و يعلو القرآن على الموسيقي، أنّه مع هذه الخاصيّة العجيبة ليس من الموسيقي) ـ و العرب لم يفتهم هذا المعنى، و أنّه أمر لاقبل لهم به، و كان ذلك أبين في عجزهم، حتّى أنّ من عارضه منهم، كمسيلمة، جنح في خرافاته الى ماحسبه نظماً موسيقياً أو باباً منه و طوى عمّا وراء ذلك من التصرّف في اللغة و أساليبها و محاسنها و دقائق التركيب البياني، كأنّه فطن الى أنّ الصدمة الأُولى للنفس العربيّة، و إنّما هي في أوزان الكلمات و اجراس الحروف دون ماعداها، و ليس يتّفق ذلك في شيء من كلام العرب إلاّ أن يكون وزناً من الشعر أو السجع.

... و أنت تتبيّن ذلك إذا أنشأت ترتّل قطعة من نثر فصحاء العرب أو غيرهم على طريقة التلاوة في القرآن، ممّا تراعى فيه أحكام القراءة و طرق الأداء، فإنّك لابّد ظاهر بنفسك على النقص في كلام البلغاء و انحطاطه في ذلك عن مرتبة القرآن بل ترى كأنك بهذا التحسين قد نكّرت الكلام و غيّرته، فأخرجته من صفة الفصاحة، و جرّدته من زينة الأُسلوب... لأنّك تزنه على أوزان لم يتّسق عليها..

... و حسبك بهذا اعتباراً في إعجاز النظم الموسيقي في القرآن، و أنّه ممّا لايتعلّق به أحد، و لايتّفق على ذلك الوجه الذي هو فيه إلاّ فيه، لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها و مخارجها و مناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعيّة في الهمس و الجهر، و الشدّة و الرخاوة، و التفخيم و الترقيق، و التفشّي و التكرير، و غير ذلك ممّا جاء في صفات الحروف.

... و لقد كان هذا النظم عينه هو الذي صفّى طباع البلغاء بعد الإسلام، و تولّى تربية الذوق الموسيقي اللغوي فيهم، حتى كان لهم من محاسن التركيب في أساليبهم ـ ممّا يرجع الى تساوق النظم و استواء التأليف ـ ما لم يكن مثله للعرب من قبلهم، و حتى خرجوا عن طرق العرب في السجع و الترسّل، على جفاء كان فيهما، الى سجع و ترسّل تتعرّف في نظمهما آثار الوزن و التلحين...

و ليس يخفى أنّ مادة الصوت هي مظهر الإنفعال النفسي، و أنّ هذا الانفعال بطبيعته إنّما هو سبب في

تنويع الصوت، بما يخرجه فيه مدّاً أو غنّةً أو ليناً أو شدّةً، و بما يهيّئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه و تتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من اصولها. ثم هو يجعل الصوت الى الإيجاز و الإجتماع، أو الإطناب و البسط، بمقدار ما يكسبه من الحدوة و الارتفاع و الاهتزاز و بُعد المدى و نحوها، ممّا هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقي.

... و هذه هي طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة، و أثرها طبيعي في كلّ نفس، فهي تشبه في القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه الذي يخاطب به كلّ نفس تفهمه، و كل نفس لاتفهمه، ثم لايجد من النفوس على أيّ حال إلاّ الإقرار و الاستجابة... و قد انفرد بهذا الوجه للعجز، فتألّفت كلماته من حروف لوسقط واحد منها أو أُبدل بغيره أو أُقحم معه حرف آخر، لكان ذلك خللاً بيّناً، أو ضعفاً ظاهراً في نسق الوزن و جرس النغمة، و في حسّ السمع و ذوق اللسان، و في انسجام العبارة و براعة المخرج و تساند الحروف و إفضاء بعضها الى بعض، و لرأيت لذلك هجنة في السمع...

... و ممّا انفرد به القرآن على سائر الكلام، أنّه لايخلق على كثرة الردّ و طول التكرار، و لاتملّ منه الإعادة، و كلّما أخذت فيه على وجهه و لم تخل بأدائه، رأيته غضّاً طريّاً وجديداً مونقاً و صادفت من نفسك نشاطاً مستأنفاً و حسّاً موفوراً... و هذا لعَمْرُالله أمر يوسّع فكر العاقل و يملأ صدرالمفكّر، و لا نرى جهة تعليله و لا نصحّح منه تفسيراً إلاّ ماقدّمنا من إعجاز النظم بخصائصه الموسيقيّة، و تساوق هذه الحروف على أُصول مضبوطة من بلاغة النغم، بالهمس و الجهر و القلقلة و الصفير و المدّ و الغنّة... على اختلاف أنحائها بسطاً و إيجازاً و ابتداءً وردّاً و إفراداً و تكريراً...

... و الكلمة في حقيقة وصفها إنّما هي صوت للنفس، لأنّها تلبّس قطعة من المعنى فتختصّ به على مناسبةٍ لحظتها النفس فيها حين فصّلت تركيب الكلام.

و صوت النفس أوّل الأصوات الثلاثة التي لابدّ منها في تركيب النسق البليغ، حتى يستجمع الكلام بها أسباب الاتصال بين الألفاظ و معانيها، و بين هذه المعاني و صورها النفسيّة و الأصوات الثلاثة هي:

١ ـ صوت النفس، و هو الصوت الموسيقى الذي يكون من تأليف النغم بالحروف و مخارجها و حركاتها

و مواقع ذلك من تركيب الكلام و نظمه...

۲ ـ صوت العقل، و هو الصوت المعنوي الذي يكون من لطائف التركيب في جملة الكلام و من الوجوه البيانيّة التي يداور بها المعنى في أيّ جهة انتحى إليها.

۳ ـ صوت الحسّ، و هو أبلغهنّ شأناً، لايكون إلاّ من دقّة التصوّر المعنوي و الإبداع في تلوين الخطاب، و مجاذبة النفس مرّة و موادعتها اُخرى.

و على مقدار ما يكون في الكلام البليغ من هذا الصوت، يكون فيه من روح البلاغة، بل صار كأنّه روح للكلام ذاته، يبادرك الروعة في كلّ جزء منه كما تبادرك الحياة في كلّ حركة للجسم الحيّ، كأنّه تمثيل بألفاظ لخلقة النفس، في دقّة التركيب و إعجاز الصنعة...

... و لو تأمّلت هذا المعنى فضلاً من التأمّل، و أحسنت في اعتباره على ذلك الوجه، لرأيته روح الإعجاز في هذا القرآن الكريم...

و أعجب شيء في أمر هذا الحسّ الذي يتمثّل في كلمات القرآن، أنّه لايسرف على النفس و لا يستفرغ مجهودها، بل هو مقتصد في كلّ أنواع التأثير عليها، فلاتضيق به ولاتنفر منه و لا يتخوّنها الملال، و هو يسوّغها من لذتها و يرقّه عليها بأساليبه و طرقه في النظم و البيان.

... و لو تدبّرت ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركاتها الصرفيّة و اللغويّة تجري في الوضع و التركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة فيهيّئ بعضها لبعض، و يساند بعضاً، و لن تجدها الاّ مؤتلفة مع اصوات الحروف، مساوقة لها في النظم الموسيقي. حتى أنّ الكلمة ربّما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيّها كان، فلاتعذب و لاتساغ و ربما كانت أوكس النصيبين في حظّ الكلام من الحرف و الحركة، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأناً عجيباً، و رأيت أصوات الأحرف و الحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقاً في اللسان، و اكتنفتها بضروب من النغم الموسيقي، حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء و أرقّه، و جاءت متمكّنة في موضعها، و كانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفّة و الروعة.

من ذلك لفظ «النذر» جمع نذير، فإنّ الضمّة ثقيلة فيها لتواليها على النون و الذال معاً فضلاً عن جسأة هذا الحرف و نبوّه في اللسان، و خاصّة إذا جاءت فاصلة

للكلام. فكلّ ذلك ممّا يكشف عنه و يفصح عن موضع الثقل فيه، و لكنّه جاء في القرآن على العكس و انتفى من طبيعته في قوله تعالى: «وَ لَـقَدْ أَنـذَرَهُمْ بَـطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ»(۵). فتأمّل هذا التركيب و انعم ثم انعم على تأمّله، و تذوّق مواقع الحروف و اجرِ حركاتها في حسّ السمع و تأمّل مواضع القلقلة في دال «لقد»، و في الطاء من «بطشتنا»، و هذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء الى واو «تماروا»، مع الفصل بالمدّ، ثمّ اعـجب لهذه الغنّة التي سبقت الطاء في نون «أنذرهم» و فـي ميمها، و للغنّة الأُخرى التي سبقت الذال في «النّذر».

و ما من حرف أو حركة في الآية إلاّ و أنت مصيب من كلّ ذلك عجباً في موقعه و القصد به.

قال: إنّما تلك طريقةٌ في النظم قد انفرد به القرآن، و ليس من بليغ يعرف هذا الباب إلاّ و هو يتحاشى أن يلمّ به من تلك الجهة أو يجعل طريقه عليها، فإن اتـفق له شيء منه كان إلهاماً و وحياً، لاتقتحم عليه الصناعة و لايتيسّر له الطبع بالفكر و النظر... فلايتهيأ لأحد مـن البلغاء في عصور العربيّة كلّها من مـعارض الكـلام و ألفاظه، ما يتصرّف به هذا التصرّف في طائفة أو طوائف من كلامه، على أن يضرب بلسانه ضرباً موسيقياً، و ينظم نظماً مطّرداً. فهذا ان أمكن أن يكـون فـي كـلام ذي ألفاظ، فليس يستقيم في ألفاظ ذات معان. فهو لغو من إحدى الجهتين. و لو أنّ ذلك ممكن لقد كان اتفق في عصر خلا من ثلاثة عشر قرناً، و نحن اليوم في القـرن الرابع عشر من تأريخ تلك المعجزة.

... ثم أخذ في ضرب أمثلة من ألفـاظ و كـلمات كانت غريبة و ثقيلة، لكنّها جاءت في القرآن في مواقعها الخاصّة أليفة و خفيفة في أبـدع مـايكون وأروع مـا يتصوّر، «كتاب أحكمتْ آياته ثم فُصِّلتْ مِن لَدن حَكيمٍ خَبيرٍ»(۶). و سـنذكر تـفاصيلها فـي مـجاله الآتـي إن شاءالله.

* * *

۵ ـ وللأُستاذ محمد فريد وجدي كلام فـي وجـه إعجاز القرآن، يشبه بعض الشيء من كلام الرافعي فيما نقلناه آنفاً «فان هذا القرآن هو ضمير الحياة، و هو من اللغة كالروح، الإلهية التي تستقرّ في مواهب الإنسـان فتضمن لآثاره الخلود...»(۷) فقد أخذ الأُستاذ وجـدي

هذا المعنى و شرحه شرحاً، قال:

حصر المتكلّمون في إعجاز القرآن كلّ عنايتهم في بيان ذلك الإعجاز من جهة بلاغته، و إنّنا و إن كنّا نعتقد أنّ القرآن قد بلغ الغاية من هذه الوجهة، إلاّ أنّنا نرى أنّها ليست هي الناحية الوحيدة لإعجازه، بل ولا هي أكثر نواحي إعجازه سلطاناً على النفس، فإنّ للبلاغة على الشعور الإنساني تسلّطاً محدوداً لايتعدّى حدّ الإعجاب بالكلام و الإقبال عليه، ثم يأخذ هذا الإعجاب و الإقبال في الضعف شيئاً فشيئاً بتكرار سماعه حتى تستأنس به النفس فلا يعود يحدث فيها ما كان يحدثه في مبدأ تواراده عليها. و ليس هذا شأن القرآن، فإنّه قد ثبت أنّ تكرار تلاوته تزيده تأثيراً. و لكنّه معجز لتسلّطه على النفس و المدارك، فوجب على الناظر في ذلك أن يبحث عن وجه إعجازه في مجال آخر يكفي لتعليل ذلك السلطان البعيد المدى الذي كان و لايزال للقرآن على عقول الآخذين به!

العلّة في نظرنا واضحة لاتحتاج لكثير تأمّل، و هي أنّ القرآن روح من أمرالله، «وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ روحاً مِنْ أَمْرِنَا»[8]، فهو يؤثّر بهذا الاعتبار تأثير الروح في الأجساد فيحرّكها و يتسلّط على أهوائها. و أمّا تأثير الكلام في الشعور فلا يتعدّى سلطانه حدّ إطرابها و الحصول على إعجابها.

فقوله تعالى: «و كذٰلِكَ أوحَينا الَيكَ رُوحاً مَن أمرِنا» يكفي وحده في إرشادنا الى جهة إعجاز القرآن، و قصور الإنس و الجنّ عن الإتيان بمثله، و بقائه الى اليوم معجزة خالدة تتلألأ في نورها الإلهي، و تتألّق في جمالها القدسيّ. ذلك لما كان القرآن روح من أمرالله، فلا جرم كانت له روحانيّة، خاصّة، هي عندنا جهة إعجازه و السبب الأكبر لانقطاع الإنس و الجنّ عن محاكاة أقصر سورة من سوره، و ارتعاد فرائص الصناديد و الجبابرة عند سماعه، و ناهيك بروحانيّة الكلام الإلهي!

نعم انّ جهة إعجاز هذا الكتاب الإلهي الأقدس هي تلك الروحانيّة العالية التي قلبت شكل العالم، وأكسبت تلك الطائفة القليلة العدد خلافة الله في أرضه، و أرغمت لهم معاطس الجبابرة و القساورة، و وطأت لهم عروش الأكاسرة و القياصرة... «يُلقي الرُّوحَ من أمرِهِ عَلىٰ مَن يَشاءُ مِن عبادِه»[9].

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

لامشاحة في أنّ القرآن فصيح قد أخرس بفصاحته فرسان البلاغة وقادة الخطابة و سادات القوافي و ملوك البيان. و هو حكيم بهر سماسرة الحكمة و الفلسفة و أدهش أساطين القانون و الشريعة و حيّر أراكين النظام و الدستور. و هو حقّ ألزم كلّ عال الحجة و دلّ كلّ باحث على الحجّة و لم يغادر صغيرة و لا كبيرة إلاّ أحصاها. و هو هدىً و رحمة و نور و شفاء لما في الصدور.

كلّ هذه صفات جليلة تؤثر على العقل و الشعور و العواطف و الميول، فتتحكّم فيها تحكّم الملك في ملكه ولكنّه فوق ذلك كلّه (روح من أمر الله) تصل من روح الإنسان الى حيث لاتصل إليه أشعة البلاغة و البيان، و لا سيالات الحكمة و العرفان، و تسري من صميم معناه الى حيث لايحوم حوله فكر و لاخاطر، و لا يتخيّله خيال شاعر.

هذه الروحانيّة تنفذ الى سرّ سريرة الإنسان و سويداء ضميره، و تستولي منها على أصل حياته، و مهبّ عواطفه و إحساساته، و تخلقه خلقاً جديداً و تصوّره بصورة لايتخيّلها و لوقيلت له لما أدركها. ألاترى كيف فعلت بأُولئك العرب الذين لبثوا أُلوفاً من السنين على حالة واحدة لايتحوّلون عنها و لايسأمون منها، فنفختهم بروح عالية قاموا بواسطتها يحمّلون الملوك سلطانهم حتى دانت لهم المعمورة من أقصاها الى أقصاها...!

أيّ حجّة أكبر من هذه الحجّة على أنّ القرآن روح إلهيّ و أمر سماويّ، و أيّ وجه من وجوه الإعجاز بعد مشاهدة هذا الأثر الفخم أوقع في النفس و أنفى للشك و أولى بالقبول من وجه روحانيّته؟

إنّ للقرآن فوق البلاغة و العذوبة و الحكمة و البيان، روحانية يدركها من لا حظّ له في فهم الكلام و تقدير الحكمة و ادراك البلاغة. حتى الطفل و العاميّ يعتريهما تهيّب عند تلاوته، و يكادان يفرّقان بين ما هو قرآن و ما ليس بقرآن، فيما لوأراد التالي أن يغشهما. و هذا يظهر جليّاً عندما تكون آية من آياته جاءت على سبيل الاستشهاد و الاقتباس، فإنّها تتجلّى لك من بين السطور و خلال التراكيب كالشمس في رائعة النهار...

قال: هذا رأيُنا في جهة إعجاز القرآن، و هو فيما نعلم يحل مشاكل هذا البحث، و يمكن الاستدلال عليه بالحسّ و الواقع، أمّا ما أولع به الناس من أنّه لبلاغته و

تجاوزه حدود الإمكان، فلم تقف له على أثر في ذات القرآن، و لم يأت ذكره في آياته ممّا جاء وصف القرآن فيها، و ليس فيها مايشير الى جهة بلاغته اللفظية، التي هي من الصنعات الثانية التي لايصحّ أن يمتدح بها الله في كتابه...[١٠]

* * *

٦ - و للشيخ محمد عبده رأي لم يتعدّ فيه رأي القدماء، و هو أشبه بالاستدلال العقلي الكلامي على نمط دلائل المتكلّمين، قال في رسالة التوحيد: جاء الخبر المتواتر أنّ النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم نشأ أُميّاً، كما تواترت أخبار الأُمم على أنّه جاء بكتاب قال أنّه أنزله الله عليه. كتاب حوى من أخبار الأُمم الماضية مافيه معتبر للأجيال الحاضرة و المستقبلة. نقّب على الصحيح منها و غادر الأباطيل التي لحقته الأوهام بها... و شرّع للناس أحكاما تنطبق على مصالحهم... و قام بها العدل و انتظم بها شمل الجماعة... ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعيّة... و جاء بحكم و مواعظ و آداب تخشع لها القلوب و تهشّ لاستقبالها العقول.

نزل القرآن في عصر كان أرقى الأعصار عند العرب، وأغرزها مادة في الفصاحة، و بذلك تواترت الأخبار، كما تواترت بمبلغ حرصهم على معارضة النبي صلى الله عليه و آله و سلم و التماسهم الوسائل قريبها و بعيدها لإبطال دعواه، و قد تحدّاهم لو يأتوا بمثل أقصر سورة من القرآن لواستطاعوا فما استطاعوا، فمع طول زمن التحدّي و لجاج القوم، اصيبوا بالعجز و رجعوا بالخيبة و حقّت للكتاب العزيز الكلمة العليا...

أليس في ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أُمّي، أعظم معجزة و أدلّ برهان على أنّه كلام الله و ليس من صنع البشر؟

هذا و قدجاء في القرآن من أخبار الغيب ما صدّقته حوادث الكون... و منه ما جاء في تحدّى العرب مع سعة بلادهم و تباعد اطرافها، و لم يسبق له صلى الله عليه و آله و سلم السياحة في نواحيها للتعرّف على رجالها... فهذا القضاء الحاسم (ولن تفعلوا) ليس قضاء بشريّاً في العادة... إذ لايمكن أن يصدر من إنسان عاقل مثل هذا التحدّي بأن لايوجد على وجه الأرض من يكون على مثيله، سوى أنّه كلام صادر من الله العليم الخبير[١١].

* * *

٧ ـ ولعلاّمة الأُدباء و فقيه الحكماء، الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء (توفي سنه ١٣٧٣) كلام تحقيقي عميق، و بيان تفصيلي رشيق حول إعجاز القرآن، أتى به على أُسلوبه الفنيّ البديع و سبك انشائه الأدبي الرفيع حبى به موسوعته القيّمة (الدين و الإسلام) التي وضعها لترصيص قواعد الدعوة و ترصيف مباني الشريعة، في ضوء الحكمة العالية و هدى العقل الرشيد. فكان من الحريّ أن نقتطف من رياحين حدائقه الغنّاء أزهاراً، و نجتني من رياض حقوله الخصباء أنوارا:

قال ﷺ: قد ثبتت التواترات القطعيّة، و قامت الضرورة البتيّة، أنّ صاحب الشريعة الإسلامية، محمدبن عبدالله ﷺ قد ادّعى النبوّة، و تحدى بالمعجزة و طلب المعارضة، و أتى بما هو الشائع على أهل زمانه، و المتنافس عليه عند قومه، و كانت بلدته أخصب البلاد لإيناع تلك الثمرة المنضحة، و تربية أساطين تلك الصنعة الرائجة... و لمّا دعاهم الى تلك الدعوة المقدّسة، طغوا و بغوا عليه، وشقّ عليهم ذلك حتى تخاوصوا بحماليق الحنق إليه.[١٢] و ما تحدّاهم إلاّ بالمألوف لهم، المأخوذ عنهم و المسوق إليهم، و لم يزل يلحّ عليهم بأنحاء شتى و عبارات متفاوتة، حتى اعترف بالعجز عريفهم، و تلدّد تليدهم و طريفهم، و صقع مصاقعهم[١٣]، و عاد لبيدهم بليداً، و شيبتهم وليداً، و قائمهم حصيداً، و عالمهم أباجهل، و سهيلهم على السهل، و عتبتهم اعتاهم، و أبولهبهم أخمدهم و أخزاهم، و عبد شمسهم آفلا، و نابغتهم خاملا، و حيّ أخطبهم ميّتا، وهشامهم مخزوما، و مخزومهم مهشوما، و سراتهم أُسارى و كبّارهم من الصّغار صغارا...

ثم قنع منهم بعشر سور من سوره المنزلة، ثم تنزّل معهم ـ و هو الرفيع ـ الى أدنى منزلة، فقنع منهم بأن يأتوا بعشر آيات، رضى منهم بسورة واحدة... فالتجأوا الى مفاوضة الحتوف، عن معارضة الحروف، و عقلوا الألسنة و العقول، و اعتقلوا الأسنّة و النصول. و رضوا بكلم الجراح، عن الكلم الفصاح. و فرّوا الى سعة آجالهم من ضيق مجالهم... فما انجلت غبرة الضلال عن جبهة الحقّ إلاّ و هم بأسرهم أسرى أو قتلى، الى أن عادت

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

كلمة الله هي العليا، و كلمة اعدائه هي السفلى...

و هكذا ما تصدّى في الازمنة المتأخّرة لمعارضته، إلاّ مأفون الرأي، مايق العقل(۱۴). و من الأعاجيب أنّك ترى الرجل في جميع المقامات فارس يليليها(۱۵) حتى إذا تصدّى ـ من ضعف في دينه، أوخور في عود يقينه، أو زندقة في هواه، أو وصم عهار في عصاه ـ الى مقاومة ذلك المقام و معارضة معجز ذلك النظام، أفحم و تبلّد و أبكم و تلدّد(۱۶) هذا مسيلمة و سجاح من الأوّلين... و المتنبي و المعرّي و أضرابهم من الآخرين... كلّ يزعم أنّه أتى بما يضاهي القرآن، فهل تجد فيه إلاّ مايضحك الصبيان... «مَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ إنَّ الله لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ...»(۱۷)

ثمّ أخذ في بيان أوجه إعجازه:

أوّلاً: ارتفاع فصاحته و اعتلاء بلاغته، بما لايدانيه أيّ كلام بشريّ على الإطلاق... و ضرب (رحمه الله) لذلك أمثلة من جلائل آياته العظام و أطنب بما بلغ الغاية القصوى.

ثانياً: صورة نظمه العجيب و أُسلوبه الغريب المخالف لأساليب كلام العرب و مناهج نظمها و نثرها، و لم يوجد قبله و لابعده نظير، و لااستطاع أحد مماثلة شيء منه، بل حارت فيه عقولهم، و تدلّهت دونه أحلامهم، و لم يهتدوا الى مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر... هكذا اعترف له أفذاذ العرب و فصحاؤهم الأوّلون.

ثالثاً: ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيّبات ممّا لم يكن فكان كما قال؛ و وقع كما أخبر، في آيات كثيرة معروفة...

رابعاً: ما أنبأ من أخبار القرون السالفة و الأُمم البائدة و الشرائع الداثرة، ممّا كان لا يعلم به إلاّ الفذّ من أحبار أهل الكتاب في صورة ناقصة و مشوّهة، فأتى به القرآن على وجهه الناصع المضيء بما يشهد صدقه و صحّته كلّ عالم و جاهل. في حين أنّه (صلى الله عليه و آله) لم يقرأ و لم يكتب، و لم يعهد دراسته لأحوال الماضين.

و أخيراً أتمّ كلامه ببيان البلاغة و شأنها الرفيع و شأوها البعيد، و أنّ العرب مهما أُوتوا من إحكام مبانيها و إتقان رواسيها، فإنّ القرآن هو الذي روّج من هذا الفنّ و أشاد من منزلته بل و عرّف البلغاء البلاغة و الكتابة و

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

البيان. و بذلك أسدى الى العربيّة جسيم نعمه، و أسبغ عليها عميم رحمة و فضل و كرامة.[18]

و في تعقيب كلامه تعرّض لشبهات هي نزعات بل نزغات، سوف نعرضها في مجالها المناسب الآتـي إن شاء الله.

٨ ـ و للحجّة البلاغي الشيخ محمّد جواد صـاحب تفسير الآلاء، اختيار مذهب السلف في وجه الإعجاز: فقد خصّ العرب بجانب بيانه السحري العجيب في مثل نظمه البديع و أُسلوبه الغريب و إن اشتركوا مع سـائر الناس بوجوه أُخرىٰ غيره:

١ ـ منها: سرده حوادث تأريـخية مـاضية كـانت معروفة في كتب السالفين بوجه محرّف، فجاء بها القرآن نقيّة لامعة، ممّا لايمكن الإتيان به من مثل النبيّ الأُمّي العربيّ. و سنذكر نماذج منها عند مقارنة القرآن مع كتب العهدين.

٢ ـ و منها: احتجاجاته المضيئة و براهينه الحكيمة، التي كشفت النقاب عن حقائق و معارف كانت خفيّة و مستورة لذلك العهد، حجبتها ظلمات الضلال المتراكمة في تلك العصور المظلمة تلك الظلمات التي اسـتولت على أرجاء العالم.

٣ ـ و منها: استقامة بيانه و سلامته من النقض و الاختلاف: «إِنَّ هَذا القرآن يَهْدِى لِلَّتِي هِيَ أَقْوَم»[19]. «أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرآن وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً»[20].

فقد خاض القرآن في فنون المعارف وشتى العلوم ممّا يتخصّص به الممتازون من علماء البشر، فقد طرق أبواب الفلسفة و السياسة و الإدارة و أصلح من عـلم اللاهوت و الأخلاق و السنن و الآداب، و أتى بالتشريع المدني و النظام الإداري و الفن الحربي، و أرشد و ذكّر و وعظ، و هدّد و أنذر، في أحسن أُسلوب و أقوم منهج و أبلغ بيان، لم تشنه زلّة و لم تتقضه عثرة ولا وهن ولا اضطرب و لا سقط فـي حـجة و بـرهان. الأمـر الذي لايمكن صدوره من مثل إنسان عاش في تـلك البـيئة الجاهلة البعدية عن معالم الحضارة و أُسس الثقافات.

٤ ـ و منها: إعجازه من وجهة التشريع العـادل و نظام المدنية الراقية، ممّا يترفّع بكثير عن مقدرة البشر الفكريّة و العقليّة ذلك العهد. و لا سيّما إذا قارناه مـع شرائع كانت دارجة فـي أوسـاط البشـر المـتديّنة أو

المتمدّنة فيما زعموا.

۵ ـ و منها: استقصاؤه للأخلاق الفاضلة و مبادئ الآداب الكريمة، ممّا كانت تنبو عن مثل تلك العادات و الرسوم التي كانت سائدة الى ذلك العهد.

۶ ـ و منها: إخباراته الغيبية و ارهاصاته بتحكيم هذا الدين و إعلاء كلمة الله في الأرض في صراحة و يقين...

قال: هذا شيء قليل من البيان في الوجهات المذكورة، و هَبْ أنّ الوساوس تقتحم على الحقائق و تخالط الأذهان بواهيات الشكوك، ولكن الزبد يذهب جفاء فأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض... و هل يسوغ لذي شعور أن يختلج في ذهنه الشك ـ بعد هذا ـ في إعجاز القرآن، و هو الكتاب الجامع بفضيلته لهذه الكرامات الباهرة و خروجه عن طوق البشر مطلقاً، و خصوصاً في ذلك العصر و في تلك الأحوال، و هل يسمح عقله إلاّ بأن يقول: «إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ»(۲۱) و صدق الله العظيم.(۲۲)

* * *

۹ ـ و هكذا ذهب سيّدنا الطباطبائي مذهب شيخه البلاغي في وجوه الإعجاز، قال: وقع التحدّي الصريح بوجه عامّ، ولم يخصّ جانب بلاغته فحسب ليختصّ بالعرب العرباء أو المخضرمين قبل أن يفسد لسانهم بالاختلاط مع الأجانب. و كذا كلّ صفة خاصّة اشتمل عليها القرآن، كالمعارف الحقيقية و الأخلاق الفاضلة و الأحكام التشريعيّة و إخباره بالمغيّبات و غيرها ممّا لم تبلغها البشريّة و لم يمكنها بلوغ كنهها إطلاقاً. فالتحدّي يشمل الجميع و في جميع ما يمكن فيه التفاضل من الصفات.

فالقرآن آية للبليغ في بلاغته، و للحكيم في حكمته، و للعالم في علمه، و للمتشرّعين في تشريعاتهم و للسياسيّين في سياساتهم، و للحكام في أحكامهم و قضاياهم، و لجميع أرباب الفنون و المعارف فيما لايبلغون مداه و لاينالون قصواه.

و هل يجترئ عاقل أن يأتي بكتاب يدّعي فيه هدى للعالمين و إخباراً عن الغيب و يستطرق أبواباً مختلفة من دون ما اختلافٍ أو تناقضٍ أبداً، فلايشك لبيب أن تلك مزايا كلّها فوق مستطاع البشريّة و وراء الوسائل

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المادية البحتة.

فقد تحدى بالعلم و المعرفة الخاصة «تبياناً لِكُلِّ شيءٍ».(٢٣)

و تحدّى بمن أنزل عليه «قُل لَوْ شَاءالله مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاٰ أَدْراكُمْ بِه فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلاٰ تَعْقِلُونَ».(٢٤)

و تحدّى بالإخبار بالغيب «تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ مَاكُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاٰ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ».(٢٥)

و تحدّى بعدم الاختلاف «وَلَو كٰانَ مِنْ عِندِ غَيْرِالله لَوَجَدُوا فِيهِ اختلافاً كَثِيراً» و تحدّى ببلاغته «أم يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفترياتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ الله إن كُنْتُم صادقين. فإن لم يَسْتَجِيبُوا لَكُم فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزلَ بِعِلْمِ الله».(٢٦)

وقد مضى القرون والأحقاب ولم يأت بما يناظره آت و لم يعارضه أحد بشيء إلاّ أخزى نفسه و افتضح في أمره.(٢٧)

* * *

١٠ ـ و على نفس المنهج ذهب سيّدنا الأُستاذ الخوئي قال: وإذ قد عرفت أنّ القرآن معجزة إلهيّة، في بلاغته و أُسلوبه، فاعلم أنّ إعجازه لاينحصر في ذلك، بل هو معجزة ربّانيّة، و برهان صدق على النبوّة من جهات شتّى: من جهة اشتماله على معارف حقيقيّة نزيهة عن شوائب الأوهام و الخرافات، التي كانت رائجة ذلك العهد و لاسيّما عند أهل الكتاب... و من جهة استقامته في البيان و سلامته عن الاختلاف، مع كثرة تطرّقه لمختلف الشؤون. و تكرّر القصص و الحكم فيه مع الاشتمال كلّ مرّة على حكمة و مزيّة فيها لذّة و متعة... و من جهة ما أتى به من نظام قويم و تشريع حكيم... و من جهة إتقانه في المعاني و إحكامه في المباني... و من جهة إخباره عن مغيّبات و أنباء عمّا سلف أو يأتي و ظهور صدقه للملأ... و كذا من جهة اشتماله على بيان أسرار الخليقة ممّا يرتبط و سنن الكون و نواميس الطبيعة، ممّا لاسبيل الى العلم به ولاسيّما في ذلك العهد...

و أخيراً قال: بل أعود فأقول: إنّ تصديق مثل أمير المؤمنين علي عليه السلام ـ و هو بطل العلم و المعرفة و البيان ـ لإعجاز القرآن، لشاهد صدق على أنّه وحي إلهي،

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

تصديقاً حقيقيّاً مطابقاً للواقع و ناشئاً عن الإيمان الصادق، و هو الحقّ المطلوب.[۲۸]

پی‌نوشت‌ها:

۱ ـ نفحت الريح: هاجت و جاءت بشدة.

۲ ـ إعجاز القرآن: ص ۱۶۹ ـ ۱۷۰.

۳ ـ المصدر: ص ۱۸۸ ـ ۱۸۹.

۴ ـ الحذم في القراءة: الإسراع.

۵ ـ القمر: ۳۶.

۶ ـ هود: ۱. اعجازالقرآن‌للرافعي: ص۲۰۹ـ۲۲۹.

۷ ـ إعجاز القرآن: ص ۲۰۹.

۸ ـ الشورى: ۵۲.

۹ ـ غافر: ۱۵.

۱۰ ـ دائرة معارف القرن العشرين: ج ۷ ص۶۷۷ ـ ۶۸۰ مادّة قرأ.

۱۱ ـ عن رسالة التوحيد بقلمه: ص ۱۱۴ ـ ۱۱۷ بتلخيص.

۱۲ ـ التخاوص: النظر الشزر. و الحملقة: التحديق و النظر بشدّة.

۱۳ ـ التلدّد: التحيّر. التليد: الأصيل: و الطريف: الحديث الشرف.

صقع: صرع. و المصقع: البليغ في خطابته...

۱۴ ـ أفن: ضعف رأيه فهو أفين و مأفون و ماق الرجل: حمق في غباوة.

۱۵ ـ يليل: اسم جبل معروف بالبادية، و موضع قرب وادي الصفراء من أعمال المدينة. و إليه نسب عمروبن عبدود: فارس يليل.

۱۶ ـ تلدّد: تلجلج و افحم عن التكلّم.

۱۷ ـ الحج: ۷۴.

۱۸ ـ الدين و الاسلام: ج ۲، ص ۵۳ ـ ۱۲۷.

۱۹ ـ الاسراء: ۹.

۲۰ ـ النساء: ۸۲.

۲۱ ـ النجم: ۴.

۲۲ ـ راجع تفصيل ما اقتضبناه من مقدّمة تفسيره آلاء الرحمان: ص ۳ ـ ۱۶.

۲۳ ـ النحل: ۸۹.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

۲۴ ـ یونس: ۱۶.

۲۵ ـ هود: ۴۹.

۲۶ ـ هود: ۱۳ ـ ۱۴.

۲۷ ـ المیزان في تفسیرالقرآن: ج ۱، ص ۵۷ ـ ۶۷.

۲۸ ـ البیان في تفسیرالقرآن: المقدمة، ص ۴۳ ـ ۹۱.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی